فن الحياة (١)

للدكتور ابراهيم ناجي

قبل ان نتكلم عن فن الحياة ، نتناول بالتعريف بضع كلمات صارت من الشيوع بحيث لم نعد نفكر في معناها الحقيقي ، او على الأصح لم نعد نراجع أنفسنا في معناها ، وبكلمة أدق جرت مجرى استعارف المألوف حتى لم نعد نعنى بالبحث في معناها

أقول ان محاضرتي الليلة هي عن فن الحياة . عنوان المحاضرة كلمتان — فن وحياة . فلنأخذ كلمة « الحياة » ولنسأل ما هي ؟ ؟ أجل ما هي حياتك أيها المستمع اليوم اليّ ؟ ؟ إني لواثق أني لو سألت أكثر الناس ما هي الحياة لتردد صدى السؤال ولسمعت همساً « الحياة ! الحياة ! ... » والغالب اني لن أسمع جواباً ، بل صدى سؤال . وسأرى اطراقة تفكير ، ونظرة ذاهلة ، ووجوم محيّر يطلب شيئاً من الامهال ليحسن الاجابة . ان مجرد البحث في تحديد كلمة الحياة أيها السادة يستدعي الالمام بعلوم عديدة ، ولن يضيع الانسان وقته عبثاً ، فهو مخلوق تجري « الحياة » في دمائه فكيف يجوز له ان يجهل كنه ما يجري في دمه ! الحياة عند علماء النفس تفاعل بين عالمين — بين عالم خارجي ، هو الكون بما اشتمل عليه من العناصر المختلفة ، وعالم داخلي ، هو عالم النفس . فالأخذ والرد بين هذا وذاك ، الموازنة بينهما ، تكييف الضغط (Tension) العلاقة بين ذاتيتنا والموضوعية الكبرى — تلك هي الحياة . والكلام عن الحياة ، يقتضي إذن الكلام عن الناحيتين ، الخارجية والداخلية كالميزانية بابيها ، مصروف وإيراد ، وكالأمة بسياستيها داخلية وخارجية . وكما يحدث دائماً حين تستعرض الدولة ميزانيتها او سياستها ، تراجع الدولة ماضيها وتوازنه بحاضرها لكي تدبر أمر مستقبلها ، فنحن على هذا القياس ، يحسن بنا ان نستعرض أمر الحياة من مبدئها على أيّ نهج سارت وكيف تطورت ولماذا ، والى أي غاية تسير ، وهل هي تمضي قدُماً ، أم تتعثر وتضمحل ؟ لقد أحسن « هافيلوك اليس » كل الاحسان عند ما شبه الناس بجيش كبير ، في مقدمته بضعة قواد وفي مؤخرته خدمة الجيش وبين هؤلاء الجيش القتالي السائر على هدى

(١) خطبة القيت في جمعية الشبان المسيحية

شيئين: الغرائز والتقاليد. ووراء هؤلاء القادة الذين في المقدمة وهم الذين يمثلون العقل والتفكير يكشفون له الأسرار ويرودون له المجاهل فسميهم الروّاد أي Pioneers ، السواد الاعظم من الناس بغير شك يعيشون كما يعيش هذا الجيش الذي يصفه هافيلوك اليس: وقد اختصر هافيلوك اليس معنى الحياة — الحياة بلا كلام عن فن ولا سمو ولا جمال — في هذه الغرائز والتقاليد التي تحكمت في التقطيع على طول الاجيال وستتحكم فيه الى آخر الزمن. وكذلك اختصر كلة الاخلاق او محاها، إذ جعلها مرادفة للتقاليد والعادات، وهو على صواب، إذ أن الكثرة الغالبة من الناس، هم عبّاد تلك التقاليد والعادات، وكما قال الدس هكسلي انها تنتقل من جيل الى جيل حتى تتخذ على الزمن حرمة وهيبة! . . .

والواقع ان هاته التقاليد والعادات، وان اختلفت في الامم فانما هي الأ قوانين ضرورة أو بالأصح هي القوالب التي تصب فيها الحياة، لكي لا تتفكك أو تضمحل

هذا أمر السواد الأعظم من الناس، فما شأن اولئك القادة الذين يتقدمون الصفوف؟

ما حكم هذا المشعل السائر في الطليعة، ما حكم هؤلاء العاقرة والنوابغ وأرباب الفنون؟ هل أفلحوا في قيادة القطيع؟ هل أمكنهم أن يشقوا له طريقاً أقوم مما رسمته الطبيعة بحكم الضرورة؟ ان هاته الطليعة مكونة من «حفنة من المشرعين والفلاسفة والعلماء والشعراء» ولكنها حفنة تُرك أثرها الخالد الذي لا يمحى، ولكن بقي مجال كبير للتفكير، هل هؤلاء الخالدون جعلوا من ذلك التقطيع الذي يمارس الحياة، هل جعلوا منهُ شيئاً آخر يرتفع بالحياة ويعيشها كفنٍّ، لا كمجموعة رتيبة لا تتبدل من التقاليد والعادات؟

أقول كفنٍّ فارجعه كما بدأت الى كلة طولها وعرضها يسمان هذه الاكوان جميعاً! الفن... لقد حاضرت عن الفن في الجامعة [1] وقلت إذ ذاك ان الفكرة هي الجمال مستقرٌّ، والفن اخراج ذلك الجمال المستقر الى حيز الوجود اي اني قرنت الفن بالجمال

غير اني عدت فراجعت نفسي وراجعت كتبي. واخذت احدد علاقة الفن لا بالجمال بل بالحياة. فان ذلك أنفع وأجدى والانسان دائماً في حاجة إلى الخروج من دائرة تعاريفه لكي يوسع آفاقه ويخلص الى عوالم جديدة: وهذا دأبي دائماً. وقد تعلمته من فلسفة كيرلنج في كتابه «فن الحياة»! فجعلت أراجع أحب التعاريف اليّ. وأناقش أقصى الآراء بنفسي وأقربها الى قلبي. فأخذت على مهل أرى ما كان يمنعني عنهُ تقيدي بآراء كنت أتحيز لها ولا أحيد عنها! وذلك ما صنعته بموضوع الفن [2]. والواقع اني انتهيت الى رأي خاص

(١) راجع مقتطف ابريل ١٩٤١ صفحة ٣٩١ (الفن للمجتمع)
(٢) الجمال هو الفكرة مستقرة، والفن إخراج ذلك الجمال الى حيز الوجود

وقد رأيت في ما راجعت من الكتب الحديثة التي تكلمت عن العلاقة بين العلم والفن موافقة تامة للرأي الذي انتهيت اليه وهو الذي سأشرحهُ لكم الآن وستجدون فيه كثيراً من الصواب والمنفعة وان كانت المنفعة آخر ما يعنى به الفن حتى قال شوبنهاور « ان الفن شيء لا يراد به النفع وهذا سرّ عظمته . »

ان التفكير يبدأ بأن نعلم (Conation) ثم ينتهي بأن نعمل. وكذلك العلم حكمته تدل عليه — اننا نعلم — اننا بواسطة العلم (Science) نعرف الحقائق فاذا أخذنا « نخلق » على ذلك العلم شيئاً فهذا هو الفن أي ان الفن ، هو العملُ والخلْق في اقتران وهذه المدنية هي خلاصة الفنون جميعاً أقصد بالمدنية الجانب المشيد المجسد منها لا الجانب الروحي فذلك في افلاس . ولماذا هو في افلاس ؟

قرأت كتاباً من أخطر الكتب يدعى العقل في التكوين The Mind in the Making لكاتب اميركي اسمهُ Robinson قال عنهُ وبلز انهُ أهم من مؤتمرات العالم وزعماء الدنيا جميعاً وفي هذا الكتاب تحليل لعلل العالم وارجاعها الى اسبابها . ورأيه يتفق مع ما قلته من ان العالم يسير في طريقين . أو هو محكوم بقوتين . التقاليد والغرائز في ناحية ، والعقل او التفكير في ناحية أخرى . وبعبارة اخرى قوة تحكم التقطيع . وقوة أخرى تفكر له . القوة الاولى نسميها قوة التقاليد أو الخلْق ، والثانية قوة العقل الخالق

القوة الاولى تتحكم في التقطيع ولا تبارحهُ بل هي تقيدهُ وتكبلهُ . وهو نفسه يجعل للتقيد قداسة والتكبيل حرمة . ولقد وقف من هذا الامر موقف آبائه واجداده لم يتغير ولم يتبدل اي بقي عند حجته الاولى . هو هو ذلك الرجل البدائي وان كان قد اكتسى حسن الثياب وسكن أفخم الدور ، وبدا رائع المظهر تحت طلاء من الاكاذيب المقررة وقناع من الآداب التوارثة المصطلح عليها . وقد انغمس في ذلك المستنقع انغماساً تامًّا . وأبى ان يخرج منهُ أو يمد يده الى الذي يحاول ان يخرجهُ . هذا في ناحية — اما في الناحية الاخرى فعندنا قادة العالم من فنانين وزعماء وعباقرة . هؤلاء يتميزون عن القطيع بشيء واحد انهم رفضوا ان ينغمسوا في ذلك المستنقع وحطموا القيود وبدل ان يمرّوا بالصور وفي أيديهم مصباح ياهت صاحب عمروها بنور الشمس فظهر معناها رائعاً واضحاً . ثم رفضوا ان يقفوا عندما قرر أسلافهم الوقوف عنده وكذلك رفضوا ان ينغمروا في ذاتيتهم وأن يظلوا في الدائرة الضيقة المحصورة من نفوسهم . اي انهم خرجوا من الخاص الى العام الشامل ، تحرروا من قيود الذات ليفهموا الموضوع وان كان تحررهم من تلك القيود لم يمح تلك الذاتية . . . ذلك طابع الفلاسفة والمفكرين والعباقرة من أول التاريخ . ولقد أصاب كيسرلنج في قوله انهُ لا فلسفة ولا شعر

ولا فن بدون هذه الذاتية القوية أولاً . ثم خروج الى الموضوعية ثانياً . أي ان الفنان او العالم او الشاعر او العبقري يجب ان يأخذ من داخله ليصل الاسباب بين الداخل وبين العالم الخارجي الكبير . ان هذا الخروج من الذات هو أول وسائل الامتزاج والفهم والكشف . وبهذا صارت الحقائق العلمية تكشف واحدة بعد أخرى — يكشفها العلم — ثم يسلمها للفن فيتناول تلك الحقائق فلا يزال يجري عليها خياله وعبقريته حتى يجيء منها مزيج جديد. مخلوق، سمه كما شئت ، هو ذلك المخترع الذي هو حيناً بالراديو وحيناً آخر طيارة وهكذا . . . هذه الناحية من التقدم الفني ولا أقول العلمي في نجاح مطرد . . . وسيظل ذلك النجاح مطرداً ، كما سيظل وقوف الانسان في ناحية الهمجية البدائية ثابتاً

والنتيجة ان تختلف القوتان المسيطرتان، هذه جامدة كالقالب الذي ركب وانتهى. والثانية تتبدل وتتشكل وتتجدد وبذلك تتقدم . والخلاصة ان البدائي الهمجي المطلي بالاكاذيب يسلحه العلماء ويكسوه المخترعون وهو لم يستعد بعد لذلك أقل استعداد . ولا أخذ لذلك أقل أهبة فيسيء استعمال ما سلح به . وماذلك الخراب والدمار الذي نرونه إلا النتيجة الحتمية للفرق بين قوتين — اخلاقية وقفت جامدة صماء — وأخرى علمية فنية تثب وثباً الى الامام

هذا رأي روبنسون وهو رأي رائع جليل . غير ان العلاج عسير جداً . وخلاصته ان يجيء قوم من هؤلاء القادة ويكونوا مستعدين لمحاربة ما اصطلحت عليه الاجيال جيلاً من ناحية الآداب والاخلاق فيفكرون فيها تفكيراً جديداً يستعرضونها كما يستعرضون الحقائق العلمية على ضوء آراء غير متحيزة لاحد ولا لشيء . ثم يبشرون بآرائهم ويكافحون في سبيل نشرها. نرد على روبنسون قائلين : وهل هؤلاء القادة لم يجيئوا في التاريخ ؟ ما رأيك في هذا الرسول وذاك وفي هذا المصلح الذي اضطهد وذاك الذي قتل ؟

يجيب — ويجيب معه ولز — نحن في حاجة الى ما يسمى بالانجليزية Team work — أي عمل اجتماعي — جهد عالمي مشترك يتنازل عن العصبيات والقوميات .... وأين هو ؟؟؟

خلاصة هذا القول إن الفن قوة ديناميكية — قوة خلاقة مبدعة وقد أبدى شوبنهاور هذا الرأي قائلاً : ان الفنان يتروح موضوعه ليولد من ذلك الزواج عمل فني . فاذا أردنا ان نصف الفن — قلنا هو القوة الخالقة ...

وفن الحياة اذن هو القوة التي تخرج من الحياة ثمرة ومن تجاربها شيئاً نفيساً أي ان فن الحياة هو ذلك الفن الذي يأخذ بيدنا الى آفاق غير منظورة وتجاريب غير معروفة فينشيء لنا أو يبدع من تلك التجاريب والآفاق شيئاً حقيقياً ملموساً نابضاً بالحياة والخير ....

ألمح سؤالاً يتردد على شفاهكم جميعاً. أليس أفراد القطيع متشابهين؟ أليسوا آدميين؟ وهؤلاء

القادة والزعماء، أليسوا كذلك آدميين؟ فما الذي يغير هذا عن ذلك؟ ولماذا تقول ان أفراد القطيع يمارسون الحياة كحياة غشيمة خفة. وأما الآخرون فيمارسون الحياة فنًّا وفيما سامياً؟

يقتضي الرد على هذا السؤال بعض الالمام بمبادىء سيكولوجية مقررة. يجب ايها المتسائل ان تعرف ما هو التفكير الانساني وكيف يعمل وإلى أي صنف من الناس ينتمي هذا او ذاك. ان التفكير الانساني بإيجاز مجموعة من الغرائز المكدسة والمكتسبات والمواهب الموروثة تنمو في وسطها شجرة هي شجرة الذات او الـ Ego وهذه الشجرة انانية بطبيعتها ونحن على تعبير أدلر egocentric اي مركز حول الذات، وان الطفل ليضع كل شيء في فمه ويكاد يلتهم العالم كله لو استطاع وليست المدنية والثقافة الا وسائل تكبح ذلك التركيز على صالح الذات. والواقع ان مقياس الفضيلة في نظري هو مقدار ما نستطيع ان نكبح من هذا الانصراف الى الذات. نحن لا نستطيع — ولا يجوز لنا — ان نقتل ذلك الحرص على الذات فهو أس الحياة والعمران ولكن الانصباب على الذات، هو أس كل ضعف وكل شقاء وهو آفة ذلك القطيع الذي حدثتكم عنه. ويكفيكم ان تنظروا الى حيوان كالحمار. ان له اشراقة طوية معناها انصبابه على نفسه وهو لا يفيق الا حين يدعوه داعٍ كالاكل والشرب وهو لا يعبأ بالحمار الذي يجاوره ولا يهمه الا مطالبه الخاصة، الا حاجاته البدائية من غذاء وتناسل

أغلب الناس ايها السادة يمارسون الحياة على طريقة الحيوان. حياتهم انصباب تام على ما يخص نفوسهم. وقد يعيش الانسان في دائرة من عالمه الخاص ولا يرى الا بمقدار ما يحتاج اليه عالمه الخاص من الرؤية ولا يتحرك الا بمقدار ما يحتاج اليه عالمه الضيق، معاشرته لغيره مبنية على المنفعة الخاصة، حركاته جميعاً تدفعها اليها ذاته المسيطرة عليه. وقد كتب برتراند رسل كتاباً ضخماً عن السعادة فأرجع كل اسباب الشقاء الى هذا الانصباب وأضيف أنا الى ذلك الانصباب على المنفعة

والفرق بين العبقريين وهؤلاء الافراد من القطيع هو ان العبقريين ينسون ذواتهم ولا يبالون بمنفعة خاصة. وكل نفر يجيء إنما يأتي غرضاً. ولذلك يكون أوقع وأسمى وأعم. ما من عبقري ولا فنان نظر الى المنفعة الذاتية وانما انصرفت عبقريته أو فنه الى غرض كبير ينصب على درسه وفهمه فتأتي المنفعة رائعة جليلة وخالدة على الأيام. وقد كتب موروى كتابه عن فن الحياة فقسمهُ الى فنون منها فن التفكير ومنها فن الحب ومنها فن العمل ومنها فن الشيب

وأنا أراها كلها فنًّا واحداً. وان تفرعت وتعددت الصور. وهذا الفن الواحد قائم على شيئين. العلاقة بين الفرد والوسط وعلم سيكولوجية الفرد بعينه. أما العلاقة بين الفرد والوسط فقد أفرد لها علماء النفس فصولاً طوية منها ما كتبهُ هافيلوك أليس في كتابه الاخلاق والناس Manners & Men وما كتبهُ كيسرلنج عن العلاقة بين الفرد والنوع

وهذه العلاقة بين الفرد والنوع او بين الفرد والوسط هي بعينها مسألة الخروج من دائرة النفس وهي بعينها قضية الحب — فما الحب الا علاقة قوية بين اثنين على انها قضية لا يفصل فيها غير سيكولوجية الفرد وطرائق تفكيره ، وطرائق التفكير محكومة بالوراثة وبالتربية . والوراثة عنصر هام جداً لا يصح ان نغفله من حسابنا ونحن نرث الذكاء ونرث استعدادات خاصة واتجاهات نحو هذا الشيء او ذاك . يرث أحدنا بنية مستعدة لهذا المرض او ذاك . وأما التربية فكسح لجماح الغرائز وبخاصة غريزة التركيز على الذات وليست بأي حال قتلاً لطاقتك الغريزة التي لا يمكن ان تموت . والتربية ايضاً تدعو الناس الى فهم الغرض من التربية وهو سلامة التفكير — وكل الكتب التي كتبت عن فن التفكير كدمنت وشافتسبري وغيرهما نصت أولاً على ان التفكير السليم هو التفكير المرن المستعد لقبول اشياء جديدة والتطلع الى آفاق مرتقبة وان الانسان ليحار في بساطة العبقري اذ يراه كالطفل يجد في كل شيء عجباً وفي كل مسألة ألف وجه . ونصت ايضاً هاته الكتب على ان التفكير يجب ان يؤدي الى العمل والى الاثمار . ان جيته كان يدعو التفكير العقيم — النشاط الفاقد الصفة — وكان يشبه ذلك التفكر العقيم « بالنحلة » التي يضربها الصبية في الطريق فتدور وتدور ثم تقع مشلولة . ولكي يكون التفكير مثمراً يقول موروي في كتابه انه يجب ان يحدد الهدف على شرط ان لا يكون الهدف اسعاد انفسنا وعلى شرط ان لا يكون قائماً على مصالحنا الشخصية . ويقول ان الانسان مثله في هذه الدنيا يشبه السبّاح على وجه الماء كلما كثرت متقلاته كلما غاص الى قعر الماء وكلما صعب عليه ان يسبح الى الشاطىء . فمن الشجاعة ان نقطع ما يعوق تفكيرنا وينقله ولو فكر الواحد منا لوجد ان تلك المثقلات اليومية صغيرة وكثيرة بحيث ان أكثرنا يقيد بها وتمنعه عن أي هدف كبير

أما فنّ الحب ، — فيجب أن يقوم على فهم ما هو الحب — فتعريف الحب هو أنهُ « نصف يبحث عن نصفه الضائع » . . . أي أنهُ بحثٌ ونصَبٌ خلف عزيز مفقود . نصبٌ يتطلب التضحية ، وأكثر الناس يفهمون من الحب أنهُ أخذٌ بغير إعطاء فيحرمون الذين يحبونهم احتقاراً ، وأساس هذا الأنانية ، وأعود فأكرر كما قلت أولاً أنهُ الانصباب على النفس ومحاولة اعطائها كلّ شيء وريها من ماء حياة الآخرين حتى ينضب ينابيعهم

الآن ، قد ذكرت لحضراتكم ما هي الحياة وما هو الفن وبينت لحضراتكم كيف تكون الحياة فناً ، وبينت آفة القطيع الآدمي ، ألا وهي الانصباب على الذات بغير تفكير في الآخرين ، وبينت لحضراتكم أساس الصداقات والمحبات ، وهو تكران الذات

وبينت لحضراتكم علة فساد العالم ألا وهو بقاء الاخلاق في قوالب جامدة مع تطور العلم والفن تطوراً سريعاً ، ولعلي اذ وصفت الداء قد وصفتُ الدواء لذلك